الأدب الجزائري في العصر الصنهاجي قراءة في أدب ابن الربيب القاضي التاهرتي

Algerian literature in the Senhaji era: a reading in the literature of Ibn al-Rabeeb al-Qadi al-Tahriti

د.سليم بوزيدي[1]
المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصوف– ميلة
s.bouzidi@centre-univ-mila.dz

تاريخ الوصول 2020/10/04 القبول 2021/04/05 النشر على الخط 2021/11/30
Received 04/10/2020 Accepted 05/04/2021 Published online 30/11/2021

ملخص:

يعد "ابن الربيب القاضي التاهرتي"(ت420هـ)، من الأعلام البارزين في الأدب الجزائري القديم، على عهد الدولة الصنهاجية، فهو صاحب موهبة أدبية؛ حيث ينظم في فنون الشعر، ويكتب في النثر الفني رسائل شخصية. وتعد آثاره الفنية نموذجا للخطاب الأدبي الجزائري المتميز في الأدب العربي القديم .

الكلمات المفتاحية:ابن الربيب التاهرتي – الأدب الجزائري القديم – الشعر – رسائل – الدولة الصنهاجية.

Abstract:

Ibn al-Ribib al-Qadi al-Tahiti (d. 420 AH) is considered one of the prominent figures in ancient Algerian literature, according to the era of the Sanjid state, as he possesses literary talent; Where he organizes in the arts of poetry, and writes in artistic prose personal messages. His artistic monuments are typical of outstanding Algerian literary discourse in ancient Arabic literature.

Keywords: Ibn al-Ribib al-Tahiti - ancient Algerian literature - poetic arts - poetry pieces - era of the Sanjid.

[1]– المؤلّف المرسل:سليم بوزيدي البريد الإلكتروني:s.bouzidi@centre-univ-mila.dz

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

مقدمة:

يدرس هذا البحث الآثار الأدبية " لابن الربيب التاهرتي "، في المصادر النقدية عند بعض النقاد الذين تعرضوا للشعر والنثر الذي وصلنا لهذه الشخصية الأدبية والقامة العلمية في حاضرة الدولة الرستمية. ويعد ابن رشيق القيرواني (المسيلي) الجزائري واحدا ممن درسوا آثار ابن الربيب، فقد روى للشاعر "ابن الربيب التاهرتي"، مجموعة من القصائد والمقطوعات الشعرية، وقدم لها قراءة نقدية تعبر عن نمط من أنماط تلقي الشعر والنثر الجزائري القديم، في واحدة من الحواضر الجزائرية القديمة، ألا وهي حاضرة تاهرت في عهد الصنهاجي التي كانت لها إسهامات كبيرة في مجال الأدب والشعر، ويعالج إشكالية التلقي النقدي وزواياه المنهجية التي ينظر من خلالها ابن رشيق إلى الخطاب الشعري ابن الربيب التاهرتي.

وهو بحث يرمي إلى إبراز إعلام الأدب والنقد، والحواضر الجزائرية التي كانت مراكز إشعاع حضاري وثقافي، وامتداد طبيعي وتاريخي إلى بيئات الأدب العربي في المشرق. على غزار الكوفة والبصرة، وبغداد ودمشق، لا تقل عنها في هذا المجال وفي غيره من المجالات الثقافية منها والحضارية. غير أن الظروف السياسية والتطورات التاريخية كان لها انعكاس سلبي على الحواضر الأدبية الجزائرية القديمة. وهذا ما انعكس بدوره سلبا على الأعلام الأدبية في فترات زمنية طويلة.

أما عن الدراسات السابقة في هذا الموضوع ففيها قسمان: يتعلق القسم الأول بمصطلح التلقي، وهو قديم قدم الشعر والنقد وفيه دراسات لا يمكن إحصاؤها في مثل هذا المقام، أمهد لها بتمهيد نظري موجز، وأعرج على ذكر إسهام ابن رشيق في التلقي النقدي في هذا الصدد. ويتعلق القسم الثاني بأدب " ابن الربيب التاهرتي "، شعرا ونثرا، وروايته وتفسيره وإبداء الحكم النقدي على بعض مواضع التشكيل الفني فيه، والدراسات فيه تتفرع إلى صنفين أحدهما الدراسات القديمة، وهي كثيرة؛ منها الأدبية والتاريخية كان لها دور في روايه شعر "ابن الربيب التاهرتي"، ولم تخرج عن هذا الإطار. وأذكر منها: (إنباه الراة على أنباه النحاة للقفطي ت624هـ)،(مسالك الأبصار في ممالك الأمصار لشهاب الدين العمري ت749هـ)،(الوافي بالوفيات للصفدي ت764هـ)، (بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة للسيوطي ت911هـ).

وأما الدراسات الحديثة، فأذكر منها: تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات لشوقي ضيف، تاريخ الأدب الجزائري لمحمد الطمار، محاضرات في الشعر المغربي القديم لعبد العزيز نبوي. وقد أفاد البحث من النصوص النقدية والملاحظات التي اشتملت عليها، مما يدل على أن الدارسين والعلماء كانوا يتذوقون الشعر ويروونه ويبدون فيه آرءهم النقدية، على اختلاف تخصصاتهم. ولا شك في أن هذه الآراء النقدية تحمل في طياتها قضايا تستحق من الباحث النظر فيها لعله يخرج منها ببعض اللطائف النقدية ذات الأهمية، والتي تشكل مادة نقدية أصيلة، يبني عليها اللاحقون من النقاد أفكارهم ونظرياتهم، من أجل مواصلة المسيرة الثقافية والإبداعية.

وكان منهج البحث مقيدا بالتحليل والوصف، اللذان يعدان من الآليات الأنسب لدراسة هذا الموضوع ذي الصبغة النقدية، التي تتخذ من الخطاب الشعري مادة لها، تحاول إخضاعها للنقد الفني والبلاغي لمعرفة مواضع الجمال فيه؛ سواء أتعلق الأمر بالمستوى التركيبي أو بالمستوى العروضي أم بالمستوى الدلالي. ولا شك أن التلقي النقدي عند النقاد القدامى كانت له ميزاته وضوابطه ومناهجه، التي تختلف عن التلقي النقدي في العصر الحديث، غير أن هناك أمورا كثيرة مشتركة بينهما .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وقد قسمت هذا البحث إلى عناصر اقتضاها الموضوع نفسه وطبيعته، فاشتمل على:- بدايات الشعر العربي القديم في الجزائر - ، وتعريف بحاضرة تاهرت- أولا- شعر ابن الربيب التاهرتي في التلقي النقدي القديم- ثانيا قسم النثر الفني.

أولا- بدايات الأدب العربي القديم في الجزائر:

يرجع شوقي ضيف بدايات الأدب الجزائري القديم، إلى عهد الدولة الرستمية، التي كانت تهتم بنشر اللغة والثقافة العربية، وتعليمها للجزائريين. غير أن الشعر فيها قليل، فيقول:" طبيعي أن لا نلتقي بشعراء كثيرين طوال القرن الأول الهجري وشطر غير قليل من القرن الثاني إلا ما كان يجري على ألسنة بعض نزلائها من العرب، حتى إذا تأسست الدولة الرستمية في تاهرت (160هـ-296هـ)، وأخذت تعنى بتعليم العربية ونشرها بين الجزائريين، حينئذ أخذ جيل ناشئ يتقنها ويتقن نظم الشعر"[1]

تعد مدينة " تاهرت" أو تيهرت حاضرة من حواضر الفكر والعلم والأدب وهي عاصمة الدولة الرستمية(160هـ-299هـ؛ 676-911م) [2]؛ يذكرها مبارك الميلي باسم "تيهرت"، ويؤكد على الدور الثقافي والعلمي الذي اضطلعت به في القرن الثاني الهجري، بقوله: "أصبحت تيهرت معدن العلم والأدب ومحط رحال الطلبة حتى قال فيها أبو عبد الله البنا: (يُفَظِّلُونَهَا على دمشق وأخطأوا وعلى قُرطبة وما أَظُنُّهُمْ أَصَابوا)، ولست أشك في أَنَّهَا دونهما ولكن حضورها في الذّهن بحضورهما يكفي دليلا على تقَدُّمها ورُقِّيِّهَا"[3].

يتضح من هذا النص الذي أورده الشيخ "مبارك الميلي" لأبي عبد الله البَنَّا أن "تيهرت"من أهم المراكز العلمية التي تنافس مثيلاتِها من الحواضر المشرقية مثل دمشق، والمغربية كقرطبة، ويبدو أن "البنَّا" متعصبٌ للمدرسة المشرقية، وهذا أمر طبيعي حينما تظهر حاضرة مغربية وتنشأ، ولم تكن موجودة من قبل، لكن العلم والفكر لا يتعصب إلى جهة أو مدينة بعينها، إنما يُسْلِسُ قياده إلى مَنْ يطلبه، ويسهر على تحصيله بجد واجتهاد. ولم تكن حاضرة "تيهرت" منغلقة على نفسها، منطوية على ذاتها، بل كانت تمد جسور الصلة المعرفية، والتواصل العلمي في شتى المجالات، وهذا بفضل عناية وتشجيع الأمراء الرُّستُمِيين، يقول الشيخ "مبارك الميلي": "عُنِيَ الرستميون بنقل الكتب التي تظهر بالمشرق منبع الحركة الفكرية الإسلامية، ولكن عنايتهم بالعلوم الدينية أشد، فكانوا أئمة في العلم كما كانوا أئمة في السياسة يتدارسون التفسير والحديث والفقه والكلام والأخبار والأشعار"[4].

وهذا الانفتاح الثقافي كان بمثابة الأرضية الفكرية واللغوية التي مهدت لشيوع العلم والأدب في حاضرة (تيهرت)، وقد وصف المقدسي مدينة تاهرت في القرن الرابع الهجري، بقوله: " تاهرت هي اسم القصبة (...) وهي (بلخ) المغرب قد أحدقت بها الأنهار والتفت بها الأشجار (...) وانتعش فيها الغريب واستطابها اللبيب، يفضلونها على دمشق (...) وعلى قرطبة، وأَظُنُّهُمْ أصابوا وهو

---

[1] - شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي،عصر الدول والإمارات، ط1، دار المعارف، القاهرة مصر، 1995، ج10، ص116.

[2] - مبارك الميلي: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، تقديم وتصحيح محمد الميلي، المؤسسة الوطنية للكتاب، (د، ت)، (د، ط)، الجزائر ص 65. (وكان تأسيسها سنة 144هـ).

[3] - مبارك الميلي: المصدر نفسه ، ج2، ص79.

[4] - مبارك الميلي: تاريخ الجزائر في القديم والحديث ، ص 77.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

بلد كبيرٌ كثير الخير، رشيق الأسواق، غزير الماء، جيّد الأهل قديم الوضع"[1]. ولو لم تكن مدينة تاهرت بهذه المواصفات، والمزايا الطبيعية والبيئية والثقافية لما قصدها طلاب العلم، ولا التجار ولا غيرهم، ولما فضّلوها على بعض الحواضر المزدهرة عليما وثقافيا كمدينة دمشق العريقة في التاريخ.ومما لاشك فيه أن ازدهار حاضرة تاهرت كان وراءه ازدهار سياسي، وقوة في الحكم تدفع بعجلة التقدم إلى الأمام، في شتى الميادين، وكان الشعر والأدب أحد هذه الميادين التي تأثرت بازدهار السياسة، ويؤكد المؤرخون أن الحكام الرستميين أسهموا في ازدهار العلم والأدب، تقول الدكتورة سامية مصطفى مسعد: "ظلت مدينة تاهرت وازدهرت طوال حكم الرستميين في المغرب الأوسط (الجزائر)" [2].

ويعترف شوقي ضيف أن الدولة الرستمية قد أنجبت شعراء امتلكوا ناصية الشعر، بفضل تشجيع الدولة للحركة الأدبية والعلمية، في قوله:" وكانت الأسرة الرستمية جميعا تهتم بالحركتين العلمية والأدبية، وأخذ الشعر يتدفق على بعض الألسنة، وأنتجت الجزائر في عهدها أكبر شاعر عرفته في القرن الثالث الهجري، ونقصد (بكر بن حماد) المتوفى سنة 296هـ، وكان له ديوان شعر كبير" [3]. ومن وحتى لا يلتبس أمر الشاعر والأديب "ابن الربيب التاهرتي" فهو ينسب إلى تاهرت غير أن مولده كان في عهد الدولة الصنهاجية (405-547هـ، 1014-1153م) التي حكمت تاهرت وتوفي سنة 420هـ.

وكانت والأدب مزدهرا في الدولة الصنهاجية لتوفر مجموعة من العوامل منها العامل السياسي؛ يوضحه الأستاذ محمد الطمار، بقوله: " رزق الله في هذا العهد (الصنهاجي) ملوكا عنوا بالعلم وأهله، فنهضت الثقافة على يدهم نهضة كبيرة"[4]، ومما لا جدال فيه أن أي نهضة سياسية تصحبها نهضة في الفكر والثقافة والأدب. وقد اشتهر العديد من الشعراء والأدباء في ظل الدولة الصنهاجية التي يبدو أن علاقتها بالمشرق العربي كانت متينة، فيما يخص اللغة وآدابها. ويوضح محمد الطمار هذا الاتصال الثقافي، بقوله: " عرفت الجزائر في هذه الفترة أدباء كثيرين ذوي عارضة في الأدب. والأدب تقدم تقدما محسوسا من حيث الكم.ولعل من الجدير بالذكر أن هذا الكم من الشعر قد ضاع أغلبه في ظل الصراعات السياسية الحاصلة في المغرب العربي، فلم يتمكن العلماء من جمعه. ويذكر الدكتور عبد العزيز نبوي بعض الأسباب التي حالت دون ذلك في، قوله: [5]

- ضياع المصادر المغربية المبكرة، تاريخية وغير تاريخية؛ وهي خير مضان الشعر المقول هناك.
- بعد الشقة بين المغرب والمراكز الأدبية القوية في العراق والشام، وهي المراكز التي احتفت بالأدب درسا ونقدا وتدوينا.
- أولوية شعر البلاط لدى كثير من المهتمين بدرس الأدب إذ ذاك.

---

[1] – المقدسي: أحسن التقاسيم، ط3، مكتبة مدبولي القاهرة، مصر، 1991، ص 318-321.

[2] – سامية مصطفى مسعد: العلاقات بين المغرب والأندلس في عصر الخلافة الأموية، ط1، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الإسكندرية، مصر، 2000، ص194.

[3] – شوقي ضيف: المرجع نفسه، ج10، ص116.

[4] – محمد الطمار: تاريخ الأدب الجزائري، ط1، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،2010، ص 113.

[5] – عبد العزيز نبوي: محاضرات في الشعر المغربي القديم، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص 34.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويؤكد الأستاذ "عثمان الكعاك" هذه الصورة السياسية المتسمة بالتمزق والتشرذم التي اتصف بها الأدب الجزائري القديم، بقوله:" لقد كان لتلك الميزة الجزائرية في التشتت أثرها في الأدب. فإننا إذا ما تقصينا البحث وتعمقنا في التنقيب لنجد أن الأدب الجزائري لا يكون أدبا واحدا له أطوار مختلفة بسبب المنازع الفكرية أو المناهج الأدبية، وإنما هو جملة آداب، لدول وطوائف ومختلف ولايات في حدود البلاد الجزائرية"[1]. وغيرها من الأسباب التي أسهمت في بقاء تراث المغرب الشعري منه في غياهب النسيان.

وليس من السهولة بمكان على الباحث في الأدب الجزائري القديم أن يكتب بحثا أو دراسة على علم من أعلام الشعر الجزائري القديم، وذلك لندرة المصادر التي تؤرخ له، وإن وجدت فهي لا تشتمل على ما يلبي حاجة الباحث من مادة علمية ونقدية تعينه على مقاربة نصوصه مقاربة منهجية واسعة؛ إذ غالبا ما تكون عبارة عن ترجمات مقتضبة، ليس فيها ما يفتح المجال للباحث أن يبلغ غايته في دراسة هاته الآثار الأدبية وإبراز ما فيها من جماليات، غير أننا لا نعدم أن نجد فيها ولو خيطا نقديا رفيعا نتمسك به في هذه المقاربة النقدية . وقد كانت الجزائر أو بلاد المغرب الأوسط في القديم، قد أنجبت شعراء لهم مكانة رفيعة في ميدان الشعر، منهم الشاعر "ابن الربيب التاهرتي"[2]،والذي يصفه ابن رشيق القيروانيبقوله:"الحسن بن محمد التميمي، القاضي التاهرتي المعروف بابن الربيب. من شعراء القيروان في القرن الخامس. طلب العلم في القيروان، وكان جعفر بن محمد القزاز معنياً محباً له، فبلغ به النهاية في الأدب، وعلم الخبر والنسب. تولى القضاء، وله شعر جيد"[3].

وفيما يخص الفنون الشعرية في الأدب الجزائري القديم فقد كانت كثيرة ومتعددة، ولم يتم دراستها في مرجع مستقل، وكانت تعالج في بحوث ودراسات أكاديمية. غير أن هناك من الباحثين من عمل على تصنيفها مثلما فعل شوقي ضيف في كتابه " تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات– الجزائر، المغرب الأقصى، موريتانيا، والسودان"؛ حيث قسم الشعراء حسب الأغراض والفنون الشعرية، فبدأ بفن المديح، ثم الفخر والهجاء، والشعر التعليمي، ثم الغزل، ثم الوصف، والرثاء، ثم الزهد، والتصوف، ثم المديح الديني[4].وقد كانت الجزائر في بلاد المغرب قد أنجبت شعراء لهم مكانة رفيعة في ميدان الشعر، منهم الشاعر ابن الربيب القاضي التاهرتي[5]، هذه الشخصية التي جمعت بين فضائل الشعر وفضائل النثر، كما يلي:

---

[1]– عثمان الكعاك: بلاغة العرب في الجزائر، نشر مكتبة العرب بتونس، 1344هـ ، ص ص 19– 20.

[2] – ابن رشيق القيرواني: أنموذج الزمان في شعراء القيروان، تح محمد العروسي المطاوي وبشير البكوش، الدار التونسية للنشر، تونس،1986،ص 111. أما "تاهرت"، فهي بلد الشاعر ومسقط رأسه، وتسمى أيضًا تيهرت . مدينة جزائرية قديمة كانت عاصمة للدولة الرستمية التي أسسها القاضي عبدالرحمن بن رستم في القرن الثاني الهجري، الثامن الميلادي، ويطلق عليها الآن تيارت. وفي سنة 160 هـ، 777م، أسس الخوارج دولتهم على جزء من المغرب الأوسط متخذين من مدينة تاهرت عاصمة لها، وقد اختاروا عبدالرحمن بن رستم الفارسي الأصل إمامًا لهم فسار سيرة حسنة وعرفت البلاد في عهده استقرارًا وازدهارًا، وأقامت علاقات حسنة مع بني أمية بالأندلس، وظل الحال على ما هو عليه كثيرًا حتى تمكن الفاطميون من التغلب على تاهرت واحتلالها سنة 297هـ، 909م، فتفرق الخوارج في مناطق مختلفة من إفريقيا والمغرب الأوسط.

[3] – ابن رشيق القيرواني: المصدر نفسه، ص111.

[4] – ينظر، شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات،ج10،ط1، دار المعارف،القاهرة مصر،1995، ص ص 116 – 209.

[5] – ابن رشيق القيرواني: أنموذج الزمان في شعراء القيروان، تح محمد العروسي المطاوي وبشير البكوش، الدار التونسية للنشر، تونس،1986، ص111.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ثانيا– قسم الشعر: يعد الشعر المغربي القديم من أهم مظاهر الثقافة واللغة عند العلماء والمثقفين، والمتعلمين بعامة. وهو قسيم النثر. وقد عرف ابن الربيب بكونه شاعرا من أهم شعراء البلاط في الدولة الصنهاجية. وقد حظي باهتمام كبير من النقاد والدارسين، سواء أكانوا من المعاصرين له أم من الذين جاءوا بعده.

1– شعر ابن الربيب التاهرتي في التلقي النقدي القديم:

ورد شعر ابن الربيب التاهرتي في مؤلفات مجموعة من النقاد والبلاغيين أذكر منهم: الناقد ابن رشيق القيرواني، في كتاب "أنموذج الزمان في شعراء القيروان"جمال الدين القفطي في كتابه:" إنباه الرواة"، صلاح الدين الصفدي في "الوافي بالوفيات "، شهاب الدين العمري في "مسالك الأبصار في ممالك الأمصار"، والسيوطي، في كتابه: " بغية الوعاة"، وفي غيرها من أمهات الكتب.

أ– ابن رشيق القيرواني(390هـ–456هـ): من المعلوم أن ابن رشيق القيرواني واحد من أهم النقاد في عهد الدولة الصنهاجية. وكان معاصرا لابن الربيب التاهرتي، ولعبد الكريم النهشلي الناقد المغربي الجزائري الشهير. وقد كان كتابه أنموذج الزمان في شعراء القيروان من أهم المصادر النقدية . وقد روى ابن رشيق شعرا لابن الربيب التاهرتي، وعلق عليه مطلقا بعض الأحكام النقدية، مبديا رأيه، في شيئ من الإيجاز الذي عرف به[1].

ب– القفطي ت624هـ:اعتنى القفطي برواية شعر ابن الربيب التاهرتي، وترجم له في كتابه "إنباه الراة" وذكر اسمه وأصله وشيئا من حياته، وأما عن شعره فيقول:" وكان شاعرا مقدما قوي الكلام خبيرا باللغة[2]، ولولا هذه المؤهلات والإمكانيات اللغوية لما تمكن أي شاعر من نظم الشعر، ولما أصبح مقدما في قومه، ذا مكانة بين العلماء والشعراء. ثم يتحدث "القفطي" عن بعض ملامح البيئة الاجتماعية التي ساعدت "ابن الربيب التاهرتي" على تفجير موهبته الشعرية واللغوية، فيقول: " صحب – يعني ابن الربيب– بني أبي العرب على يد عبد المجيد بن مهذب، وأبي البهلول بن سريج، فتقدم تقدما كبيرا"[3].ولعل سبب هذا التقدم في المكانة الشعرية، هو "فن المدح"، حيث جلب له شهرة كبيرة، وصيتا ذائعا. وقد روى القفطي طرفا من هذا المدح:[4]

ولما التقى الجمعان واستمطر الأسى ... مدامع منا تمطر الدمع والدِّما
لدى ما تم للبين غنى به الهوى ... يشجو وحن والشوق فيه فأرزما
تصدت فأشجت ثم صدت فأسلمت ... ضميرك للبلوى عقيلة أسلما

إنّ المتأمل في هذا النص النقدي يلاحظ أن "القفطي" يروي شعر ابن الربيب التاهرتي، ويبدي حوله حكما نقديا يمكن أن نصفه بالذاتية والانطباعية أكثر منه ممارسة نقدية مبنية على قواعد منهجية محددة. وهذه عادة النقاد القدامى لا يعللون لأحكامهم

---

[1] – ابن رشيق القيرواني: أنموذج الزمان في شعراء القيروان، ص111.

[2] – جمال الدين بن يوسف القفطي: إنباه الرواة على أنباه النحاة، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، دار الفكر العربي القاهرة، مصر،1986، ج1، ص 353.

[3] – المصدر نفسه، ج1، ص 353.

[4] – المصدر نفسه، ج1، ص 354.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

النقدية. ولهذا السبب بقي النقد في هذه الفترة بالذات يدور في فلك الدراسة التاريخية والاجتماعية، التي تدل على أن الناقد مجرد مؤرخ أو متلقي عادي للنصوص الشعرية.

ب- شهاب الدين العمري ت749هـ): اهتم هو الآخر بشعر ابن الربيب التاهرتي، إذ روى له مجموعة من المقطوعات الشعرية، وقصيدة واحدة، بلغ عدد أبياتها سبعة، وهي من قافية الغين، التي تعد من القوافي المستعصية. وقد أشاد العمري بالشاعر إشادة كبيرة، وقال فيه أنه: " عاكف على الآباء، عارف بقديم الإماء، يرفع ويضع، ويأخذ ويدع، وإلى قوله الرجوع فيما اتصل وانقطع، وطار ووقع"[1]، حيث وصف الشاعرَ بأوصاف مدح قلما تجتمع في رجل علم. ثم يفاضل بينه وبين بعض علماء عصره، فيرفعه عليهم، فيقول:"لو جهد ابن بكار، لما وجد عليه سبيلا لإنكار. ولو قرن به البلاذري لعصفت به ريح النكباء فذري، ولهذا عرف كيف يخلص المدح من الذم، ويفرق بين الأشباه وإن كان النهر من عنصر اليم "[2]؛ ولنا أن نتصور تفوق ابن الربيب التاهرتي، وهو مغربي جزائري، على علمين من أشهر العلماء، في زمنه، وهما: "ابن بكار"، و"البلاذري".

ولعل مكانة "ابن الربيب" العلمية كانت سببا في أن يروى شعره شهاب الدين العمري، في كتابه " مسالك الأبصار في ممالك الأمصار"، وأن يضمه إلى جملة شعراء الدولة العباسية بالجانب العربي.

ج- الصفدي ت764هـ:

ترجم صلاح الدين الصفدي لابن الربيب التاهرتي، في كتابه "الوافي بالوفيات"، وقال عنه مترجما :" هو ابن الربيب التاهرتي، الحسن بن محمد التميمي القاضي التاهرتي، المعروف بابن الربيب. طلب العلم بالقيروان، وكان محمد بن جعفر القزاز معنيا به محبا له، فبلغ به النهاية في الأدب وعلم الخبر والنسب. كان يقول الشعر الجيد. توفي سنة عشرين وأربعمائة، وقد جاوز الخمسين وتولى القضاء"[3] . وهذا النص يشتمل على ترجمة وجيزة للشاعر، ولكنه يشتمل على معظم الأوصاف الواجب توافرها في الشاعر ليبلغ هذه المرتبة. وقد ذكرها الصفدي، وهي: العلم بالأدب، والأخبار والأنساب. وفيم يخص شعر ابن الربيب فهو يحكم عليه بأنه بلغ درجة الجودة .

د- السيوطي (849 هـ- 911هـ):

يعد السيوطي العلماء الذين يعرفون فضل الشعر والشعراء، وقد عني بالترجمة لابن الربيب التاهرتي، في كتابه :"بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة"، حيث ذكره في جملة العلماء،فقال عنه:" الحسن بن محمد التميمي التاهرتي، يعرب بابن الربيب طلب العلم بالقيروان، واعتنى به محمد بن حفص النحوي القزاز وكان محبا له، فبلغ به النهاية في الأدب وعلم الخبر والنسب، وله في ذلك

---

[1] – شهاب الدين العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تح كامل سلمان الجبوري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1971، ج16، ص 183.

[2] – المصدر نفسه، ج16، ص 183.

[3] – صلاح الدين الصفدي: الوافي بالوفيات، تح أحمد الأناؤوط وآخرون، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان،2000، ج12، ص 148.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

تأليف مشهور "[1]. ويذكر السيوطي جوانب أخرى من العلوم التي تلقاها ابن الربيب وبرع فيها، فيقول عنه:"وكان خبيرا باللغة شاعرا مقدما قوي الكلام يتكلف بعض التكلف"[2]؛ ولعل خبرة ابن الربيب باللغة، وتمكنه من الشعر، كانت من أهم الميزات التي حدت بالسيوطي أن يترجم له.

ولم يكتف السيوطي بهذا، بل شفع كلامه بشهادة لناقد له باع طويل في نقد الشعر ومعرفة رجاله، ألا وهو عبد الكريم النهشلي؛ يقول السيوطي:"وكان عبد الكريم بن إبراهيم النهشلي يروي له ما لا يروي لأحد من الشعراء، فسئل عن أشعر أهل بلده؟ فقال: أنا، ثم ابن الربيب"[3]. وهي شهادة ناقد وشاعر، لابن الربيب، وهي ليست صادرة عن أي كان بل هي تقييم حقيقي لنبوغ الشاعر الجزائري في فن القريظ.فهذه نصوص نقدية لعلماء ومؤرخين متعددي الثقافات- يتعرضون فيها لشاعر جزائري من المغرب الأوسط القديم، في حاضرة تاهرت. وهي دليل على أن الحركة الأدبية كانت مزدهرة في عهد الدولة الصنهاجية.

ثانيا- موضوعات الشعر عند ابن الربيب التاهرتي:

برع ابن الربيب التاهرتي في الشعر، وتمكن من نظم الشعر في أهم الموضوعات الشائعة في عصره؛ فقال في المدح، وفي الرثاء، وفيما يلي بعض اغراض الشعر:

1- المدح:عرف شعر المدح رواجا كبيرا في الشعر القديم بصفة عامة، وفي الشعر الجزائري القديم وذلك لارتباطه بوجهاء القوم، ويؤكد ذلك شوقي ضيف بقوله:" يعد المديح أهم موضوع استغرق صفحات الشعر العربي على مر العصور، وقد نشأ أول ما نشأ عند العرب حول التغني ببطولات فرسانهم وشجعانهم في الحروب ومكارم سادتهم وخصالهم الحميدة في السلم والحرب"[4]. ومن الطبيعي أن لكل دولة سادة القوم فيها والفرسان المبرزون الذين يبهرون الناس ببطولاتهم، وبذلك يستحقون المدح من شعراء قومهم. وكانت الجزائر في عهد الصنهاجيين قد عرفت أبطالا شجعانا يدافعون عن بلادهم باستماته، يقول في هذا شوقي ضيف:" وظل لكل عصر أبطاله وسادته وأمراؤه وحكامه، وتفنن الشعراء في وصف البطولات الحربية والخصال الكريمة وحكم الخلفاء والحكم العادل الرشيد على مدى العصور الاسلامية المتعاقبة. وطبيعي أن يكون للجزائر حظ في هذا المدح منذ تكونت تاهرت"[5]، وقد ذكر شوقي ضيف ابن الربيب التاهرتي في جملة شعراء الجزائر المتميزين في عهد الصنهاجيين، ممن عرفوا بجودة أشعارهم، وهاجروا تاهرت بعد سقوط الدولة الرستمية، ونزلوا القيروان بعد اكتمال نضجهم الأدبي[6].

---

[1] – جلال الدين السيوطي: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة،تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، مطبعة عيسى البابي الحلبي،القاهرة، مصر،1964، ج1، ص 525.

[2] – جلال الدين السيوطي: المصدر نفسه، ج1، ص 525.

[3] – جلال الدين السيوطي: المصدر نفسه، ج1، ص 525.

[4] – شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي،عصر الدول والإمارات، ج10، ص 120.

[5] – شوقي ضيف: المرجع نفسه، ج10، ص 120.

[6] – ينظر، شوقي ضيف: المرجع نفسه، ج10، ص 120.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ولما تمكن ابن الربيب من فن الشعر أصبح بإمكانه أن يتصل بالسلطان، وقادة الجيش، وأن يخلد بطولاعهم ويشيد بأمجادهم. وقد روى ابن رشيق بعضا مما بلغه من شعر ابن الربيب التاهرتي، وبخاصة قصيدته التي مدح بها محمد ابن أبي العرب، التي يقول فيها: [1]

ولما التقى الجمعان واستمطر الأسى ... مدامع منا تمطر الدمع والدِّما
لدى ما تم للبين غنى به الهوى ... يشجو وحن الشوق فيه فأرزما
تصدت فأشجت ثم صدت فأسلمت ... ضمير ك للبلوى عقيلة أسلما
ألا إنما أودى بصبري حاجةٌ ... لدى رأس نيق للتعذر أبهما
جعلت إليها إذ تناءى محلها ... ندى ابن أبي العرب المؤمل سلما
ضمنت لنفسي نجحها عنه واثقا ... وأخلق براج ضامن إن تذمما
يفل الخميس المجر مصلت رأه ... أذا رأي ثبت القوم قال وأحجما
إذا اشتجرت فيه الأسنة خاضها ... إلى الموت حتى يترك الموت أعصما

ويصف ابن رشيق القيرواني الشاعر ابن الربيب التاهرتي،بقوله:" وكان خبيرا باللغة شاعرا مقدما قوي الكلام يتكلفه بعض التكلف. حدثني جماعة من أصحابنا قالوا: عبد الكريم من أشعر أهل بلدنا في الوقت؟ فبدأ بنفسه ثم ثنى بابن الربيب"[2]. و علق ابن رشيق على هذه القصيدة بقوله:" كفى بهذا الشعر شاهدا بالحذق، لما فيه من القوة والاندفاع وجزالة اللفظ، والمجانسة بين (تصدت) (وصدت) وبين (أسلمت) و(أسلم)" [3]. وفي هذه القصيدة يكز الشاعر على قيم الشجاعة، ويتفنن في وصف البطولات الحربية والخصال الكريمة التي يتحلى بها ممدوحه محمد بن أبي العرب الفارس الشجاع المقدام الذي لا يهاب الموت. وقد جمعت هده القصيدة ميزات المدح-كفن يتطلب كفاءة شعرية ومقدرة لغوية- حيث نظمت على وزن الطويل المناسب للعبارات الفخمة والمعاني القوية المؤثرة في المتلقي؛ كالكناية عن القوة والغزارة في قوله:(مدامع منا تمطر الدمع والدِّما)، والاستعارة المكنية، في قوله:(وحن الشوق فيه فأرزما)، وفيها تشخيص للشوق، وهو أمر معنوي، ينتمي إلى حقل العاطفة.

2- الرثاء: الرثاء من أغراض الشعر القديمة، في الشعر العربي، وفيه يبكي الشاعر على الميت ويندبه، ويظهر تفجعه عليه، وهو ثلاثة أنواع عند شوقي ضيف؛ الندب، والتأبين، والعزاء[4]. وقد وجد الرثاء في الشعر الجزائري القديم منذ القرن الثالث على يد

---

[1] – ابن رشيق القيرواني: أنموذج الزمان في شعراء القيروان، ص111.
[2] – المصدر نفسه، ص 112.
[3] – المصدر نفسه، ص 113.
[4] – ينظر، شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات،ج10، ص 191.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

الشاعر "بكر بن حماد التاهرتي"، ثم تلاه الشاعر "ابن الربيب التاهرتي، الذي رثى خمسة من القادة في جيش باديس الصنهاجي(386هـ-406هـ)، كانوا قد غامروا بأنفسهم في معركة خاسرة بمنطقة "الزاب" فقال فيهم: [1]

أبت لهم أن يرتضوا الموت أنفس ... كرام رأت رميا بها الموت أحزما
فهبوا وما هابوا الردى فتدرّعوا ... على خطر قطعا من الليل مظلما
فأرسل باديس الهمام إليهم ... مع الخاتل الغدار جيشا عرمرما
فسار على جرد يصب لثاته ... ولم يدر حينا أيَّ حتف تيمما
أودى علي حين أودى حسامه ... وأقدم حتى لم يجد متقدما
ولو لم يعاجله الحمام أبادهم ... ولكن رجال أسلموه فسلما
وما إن نجا من غمرة الموت قاسم ... بإحجامه لكنما الموت أحجما
تقدم كي يسقى بما سقيا به ... فأخره المقدار لما تقدما
وهون وجدي أنهم خمسة مضوا ... وقد أقعصوا خمسين قرماً مسوما
وكان عظيما لو نجوا غير أنهم ... رأوا حسن ما أبقوا من الذكر أعظما
أبو أن يفروا والقنا في نحورم ... وأن يرتقوا من خشية الموت سلما
ولو أنهم فرُّوا لفرُّوا أعزة ... ولكن رأوا صبرا على الموت أكرما

فهؤلاء القادة الخمسة يشعرون بعزة النفس مما دفعهم إلى الاستماتة في القتال حتى الموت، خير لهم من الفرار المذل. غير هائبين، وتقدموا من عدوهم حتى لم يعد لهم مكان يتقدمون إليه، وتكسرت السيوف في أيديهم من شدة الضرب. فقتلوا خمسين بطلا من شجعان عدوهم. وكان أمامهم متسع للنجاة بأنفسهم، مفضلين حسن الذكر بعد الموت. ولو أنهم هربوا لكان ذلك عزة لهم ولأعذروا فيما أتوا لأنهم شجعان. ومنه قول ابن الربيب التاهرتي، يرثي المنصور محمد بن أبي العرب،على بحر الكامل: [2]

ومصرف للملك راح مصرفاً ... في التربب بين صفائحٍ ورجام
حكمت عليك الحادثات وطالما ... نزلت به قسراً على الأحكام
يا قبر لا تظلم عليه فطالما ... جَلَّى بغُرَّتِهِ دُجى الإظلام
أعجب لقبر قيس شبر قد حوى ... ليثا وبحر ندى وبدر تمام
يا ويح أيدٍ أسلمتك إلى الثرى ... ما كنت تسلمها إلى الإعدام

[1] – ابن رشيق القيرواني: أنموذج الزمان في شعراء القيروان، ص111.

[2] – محمد بن الحسن بن محمد بن علي بن حمدون: التذكرة الحمدونية،تحقيق: إحسان عباس – بكر عباس،ط1، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1996، ج4 ، ص 212 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وفي هذه الأبيات يخاطب الشاعر القبر الذي ضم محمد ابن أبي العرب، طالبا منه أن لا يظلم عليه فطالما أزال حلكة الظلام من بين الناس، ثم يطلب من المتلقي أن يتعجب من قبر ضيق قيد شبر من الارض كيف له أن يضم بين جنبيه ليثا في الشجاعة، وبحرا من الكرم، وبدرا في ليلة التمام، كيف له أن يضم رجلا بهذه المواصفات، والفضائل التي قلما توجد عند غيره.

وفي هذه الأبيات – على قلتها– من ألوان البيان ما يزينها؛ كالتشبيه في البيت الأول: (جَلَّى بغُرَّتِهِ دُجى الإظلام)، حيث يشبه وجه محمد بن ابي العرب بالشمس. والاستعارة التصريحية في قوله:(ليثا وبحر ندى وبدر تمام). وهي أدوات فنية تتعامل مع المعاني بنوع من اللغة المجازية التي تشخص المعاني وتعرضها في شكل حسي يدركه الخيال وكأنه مرئي.

3– الوصف:الوصف أحد فنون أو أغراض الشِّعر العربيّ القديم، ويهتم فيه الشاعر بمظاهر الطبيعة،ويصور ما يثير اهتمامه لقول الشعر، ووصف ما يشاهده حوله؛ لذلك فإن الوصف في الشعر العربي غزير يتناول شتَّى الموضوعات. وللشاعر المغربي ابن الربيب التاهرتي حظ من شعر الوصف، وهو وإن كان قليلا إلا أنه يصور الطبيعة في أدق تفاصيلها، ويحاورها، وكأنها أشخاص لا جمادات، وقد نقلت المصادر القديمة شيئا من شعره في الوصف.

ومن الوصف قول الشاعر ابن الربيب التاهرتي: [1]

انظـــر إلـــى صـــورة الجـــوزاء قـــد طلعـــت كـــــأنها قانـــــص بالـــــدرِّ منحـــــدر
شـــيحان منتطـــق عنـــت لـــــه حمـــرٌ صـــحر قبيـــل غـــروب الشـــمس أو حمـــرٌ
فـــأعرق النـــزع فـــي قـــوس براحتـــه اليُمنـــى وظـــل لـــدى النـــاموس ينتظـــر

يعرض ابن الربيب التاهرتي في هذه الأبيات صورة الجوزاء في علياء السماء حينما تطلع للناظرين، مستعينا في ذلك بالتشبيه التمثيلي:صورة الجوزاء قد طلعت بصورة القانص المتحلي بالدر واللؤلؤ المضيء؛ ففيه صورتان كلاهما فيه ضوء يتلألأ وبه جمع بين الصورتين في وجه شبه منتزع منهما. ثم يشبه هذا الصائد (القانص) بشيحان أي رجل حذر يتطلب صيده بسرعة. ويشرح ابن منظور معنى هذه الأبيات بقوله:"جعل الدبران قوسا مع الذراع الجنوبية وكذلك ذكر الأعراق وتمكن له وصف الجوزاء بقوله شيحان وهو الطويل من الرجال وقيل الحذر المتحير لما يريبه ويخافه، وقوله متمنطق لأن في وسطها نجوما تسمى المنطقة، وقوله حمر وبقر من إبداع وصفه لبياض متونها والصحر قريبة من البياض على البعد لا سيَّما أن هناك نجوما تسمى البقر جوا من الثريا من برج الثور وذكر الأعراق مع قوله غروب الشمس عجيب يدل على الحرص وخوف الفوت . وقوله ظل لدى الناموس ينتظر أي اختفى فليس يرى والناموس بيت الصائد الذي يختفي فيه"[2].وتكمن جمالية هذه الصورة في تمكن الشاعر من ربط المشابهة بين عناصر من حقل الكواكب في السماء وعناصر من الأرض على بعد المسافة بينهما، وفي جعل هذه الكواكب تكتسي حياة وكأنها شخوص قائمة للعيان.

---

[1] – ابن منظور جمال الدين بن محمد بن جلال الدين الخزرجي: نثار الأزهار في الليل والنهار،ط1، مطبعة الجوائب، قسنطينة، 1298هـ، ص114.

[2] – ابن منظور جمال الدين بن محمد بن جلال الدين الخزرجي، ص114.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ثالثا– قسم النثر الفني (الرسالة الشخصية):

للنثر الفني مكانة كبيرة في حياة الدولة، فهو وسيلتها للاتصال مع غيرها من الدول أو في داخلها وأقصد بين إدارتها . ومن النثر الفني تلك الرسائل الإخوانية، التي تعد من صور التواصل بين البيئات العربية القديمة في المشرق والمغرب. وتتجلى غالبا في بعض المجاملات المتبادلة بين الشعراء والأدباء والعلماء.

1– الرسالة الشخصية: لم تحظ الرسالة الشخصية باهتمام في بداية تأسيس الدولة الرستمية، قد أشار الدكتور شوقي ضيف إلى هذا في دراسته للأدب المغربي القديم، فقال:" يبدو أنه لم يكن بالجزائر اهتمام مبكر بتسجيل الرسائل الشخصية"[1]؛ ويرجع نقص الاهتمام هذا إلى أسباب كثيرة منها الصراعات السياسية التي عرفتها الدولة. وهناك من حفظ هذا النثر واهتم بتدوينه، يقول شوقي ضيف:" ولولا أن الإباضية اهتموا بتدوين الرسائل الديوانية لحكام الدولة الرستمية لضاعت أو سقطت من يد الزمن"[2]؛ ولعل كتاب (الازهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية لسليمان باشا الباروني)، أهم مصدر للنثر الفني الذي بلغنا عن حاضرة الرستميين. غير أنه لم يرو هذه الرسالة لابن الربيب التاهرتي، ولكن الذي رواها هو" ابن بسام"، في كتابه "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة". في معرض ترجمته لأبي المغيرة عبد الوهاب بن حزم.

وذلك أنه كتب أبو علي الحسن بن محمد بن أحمد بن الرّبيب التميمي القيرواني، إلى أبي المغيرة عبد الوهاب بن أحمد بن عبد الرحمن بن حزم يذكر تقصير أهل الأندلس في تخليد أخبار علمائهم ومآثر فضائلهم وسير ملوكهم ، ما صورته :"كتبت يا سيدي، وأجلّ عددي ، كتب الله تعالى لك السعادة ، وأدام لك العزّ والسيادة ، سائلا مسترشدا ، وباحثا مستخبرا ، وذلك أني فكرت في بلادكم إذ كانت قرارة كلّ فضل ، ومنهل كلّ خير ونبل، ومصدر كلّ طرفة ، ومورد كلّ تحفة ، وغاية آمال الراغبين، ونهاية أماني الطالبين، إن بارت تجارة فإليها تجلب، وإن كسدت بضاعة ففيها تنفق، مع كثرة علمائها ، ووفور أدبائها ، وجلالة ملوكها ، ومحبّتهم في العلم وأهله ، يعظّمون من عظّمه علمه ، ويرفعون من رفعه أدبه ، وكذلك سيرتهم في رجال الحرب : يقدمون من قدمته شجاعته ، وعظمت في الحروب نكايته ، فشجّع الجبان ، وأقدم الهيّبان، ونبه الخامل، وعلم الجاهل ، ونطق العييّ ، وشعر البكي ، واستنسر البغاث ، وتثعبن الحفّاث، فتنافس الناس في العلوم ، وكثر الحذاق بجميع الفنون ، ثم هم مع ذلك في غاية التقصير ونهاية التفريط ، من أجل أنّ علماء الأمصار دوّنوا فضائل أمصارهم ، وخلّدوا في الكتب مآثر بلدانهم ، وأخبار الملوك والأمراء ، والكتّاب والوزراء ، والقضاة والعلماء ، فأبقوا لهم ذكرا في الغابرين يتجدّد على مرّ الليالي والأيام ، ولسان صدق في الآخرين ، يتأكّد مع تصرّف الأعوام ، وعلماؤكم مع استظهارهم على العلوم كلّ امرئ منهم قائم في ظلّه لا يبرح ، وراتب على كعبه لا يتزحزح ، يخاف إن صنّف ، وإن يعنّف، وإن ألّف أن يخالف، ولا يؤالف، أو تخطفه الطّير أو تهوي به الريح في مكان سحيق ، لم يتعب أحد منهم نفسا في جمع فضائل أهل بلده ، ولم يستعمل خاطره في مفاخر ملوكه ، ولا بلّ قلما بمناقب كتّابه ووزرائه ، ولا سوّد قرطاطا بمحاسن قضاته وعلمائه، على أنه لو أطلق ما عقل الإغفال من لسانه، وبسط ما قبض الإهمال من بيانه ، لوجد للقول مساغا، ولم تضق عليه المسالك، ولم تخرج به المذاهب ، ولا اشتبهت عليه المصادر والموارد، ولكنّ همّ أحدهم أن

---

[1] – شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي،عصر الدول والإمارات، ج10، ص 232.

[2] – شوقي ضيف: المرجع نفسه، ج10، ص 232.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

يطلب شأو من تقدّمه من العلماء ليحوز قصبات السبق، ويفوز بقدح ابن مقبل، ويأخذ بكظم دغفل، ويصبر شجا في حلق أبي العميثل، فإذا أدرك بغيته، واخترمته منيّته ، دفن معه أدبه وعلمه ، فمات ذكره ، وانقطع خبره ، ومن قدّمنا ذكره من علماء الأمصار احتالوا لبقاء ذكرهم احتيال الأكياس، فألّفوا دواوين بقي لهم بها ذكر مجدّد طول الأبد." [1].

مناسبة الرسالة:

مما لا شك فيه أن لكل نص مناسبة قيل فيها، وظروفا أحاطت به فإننا يمكن أن نعرف مناسبة الرسالة من خلال الموضوع الذي عالجه ابن الربيب، وبالرجوع إلى المصادر الأدبية والتاريخية التي روته؛ وقد جاء في كتاب الذخيرة لابن بسام وصفه لشخصية من كبار الكتاب في الأندلس، وهو أبو المغيرة الذي كان فريد زمانه في الكتابة غير أنه لم يهتم بوصف بلده وأعلامه ومآثره مثلما فعل غيره، ومثله أدباء الأندلس، فكتب إليه ابن الربيب التاهرتي هذه الرسالة وكان يعرفه ويخالطه، يذكره .

ويرى شوقي ضيف أن ابن الربيب قد أصاب القصد في هذا الموقف من أدباء الأندلس ومن كتاب (العقد الفريد) للأندلسي الذي أهمل أعلام المغرب والاندلس، وذكر السبب الذي جعله يكتب هذه الرسالة، بقوله:"وابن الربيب محق في اعتراضه على كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه، لأنه لم يعرض فضائل بلده وما أنتج من نثر وكتّاب وشعر وشعراء، غير أن ابن عبد ربه قصد بكتابه العقد إلى ذلك وأن يعرض على مواطنيه الأدب المشرقي"[2] . وأما الدكتورة آمنة منصور فترى في هذه الرسالة نوعا من القسوة، حيث تقول:"كلام ابن الربيب –كما يبدو– فيه نوع من الحدة "[3]. و كان هذا الموقف من ابن الربيب التاهرتي مشابها لموقف ابن بسام من كتاب عصره في افتتانهم برواية الأدب المشرقي .

2- دراسة وتحليل:

حظيت هذه الرسالة بتعليق نقدي من الدارسين والنقاد؛ فقد علق عليها شوقي ضيف على أسلوب ابن الربيب فيها، وقد استدل بها على ما أصاب نثر الرسائل الشخصية من إحكام في الصياغة، وأخذ يقارن أسلوبها مع أسلوب الجاحظ، وما اشتهر به من المزاوجة وكثرة الترادف؛ بقوله: " فالعبارات تتقابل دون أن تتحد نهاياتها بأسجاع متعاقبة، وإن حدثت سجعة عفوا سرعان ما يعدل ابن الربيب عن مثيلة لها إلى التعادل والترادف في العبارات"[4] .

أساليب البيان:

أ. الكناية:

هي من أفضل الأساليب التعبيرية البيانية، التي تزيد الخطاب جمالا؛ ذلك أن التكنية في مواضع أفضل من التصريح، وهي دليل على تمكن الكاتب. وقد وردت في رسالة ابن الربيب التاهرتي، عبارات كنائية، مثل قوله: (وعلماؤكم مع استظهارهم على

---

[1] – ابن بسان الشنتريني: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تح إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1997، ج1، ص 133 .

[2] – شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي،عصر الدول والإمارات، ج10، ص 235.

[3] – آمنة منصور: المناظرة في الأندلس الأشكال والمضامين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،1971، ص 92.

[4] – شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي،عصر الدول والإمارات، ج10، ص 234.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

العلوم **كلّ امرئ منهم قائم في ظلّه لا يبرح ، وراتب على كعبه لا يتزحزح)**. وهي كناية عن صفة التكاسل التي أصابت الأندلسيين فلم يكتبوا عن أعلام بلدهم.

ومنها قوله: (**ولا بلّ قلما بمناقب كتّابه ووزرائه ، ولا سوّد قرطاطا بمحاسن قضاته وعلمائه)**؛ كناية عن إهمال الكتابة عن الوزراء والكتاب. تتجلى براعة ابن الربيب التاهرتي في هذه الكنايات الطريفة التي لم يسبق إليها.

ومن الكناية قوله:" يطلب شأو من تقدّمه من العلماء **ليحوز قصبات السبق، ويفوز بقدح ابن مقبل، ويأخذ بكظم دغفل، ويصير شجى في حلق أبي العميثل** "[1]؛ حيث يشتمل هذا التعبير على ثلاث كنايات:

الأولى:(**ليحوز قصبات السبق)**، وهي كناية الفوز والظفر. وأصل هذه الكناية مرتبط بالبيئة العربية القديمة؛ إذ كانوا في مراهناتهم في سباق الخيل يوضع في نهاية ميدانه قصبة مغروزة، كل من يأتي أولا يأخذها فيعلم بذلك سبقه لغيره.

والثانية:(**ويفوز بقدح ابن مقبل)**، وهي كناية عن حسن البلاء والأثر. وهي عبارة كنائية أصبحت مضربا للأمثال. لأن ابن مقبل هذا كان شاعرا خنديدا من أوصف العرب للقدح، ولذلك يقال قدح ابن مقبل.

والثالثة:(**ويصير شجى في حلق أبي العميثل)**، وهي كناية عن التفوق على الخصم وإفحامه بالجواب الذي يسكته، حتى كأنه ألقمه حجرا. وقد أصبحت هذه العبارة مثلا يضرب فيما يناسب هذا المعنى. ومما يلاحظ على هذه الكنايات أنها معبرة عن البيئة التي يعيش فيها العرب؛ سواء أكانت اجتماعية أم ثقافية أم طبيعية. وهي معبرة من جهة أخرى عن ثقافة ابن الربيب التاهرتي الواسعة في تراث العرب وأخبارهم وعلومهم.

ب. الاستعارة: من المؤشرات الدلالية التي تمس المعنى والمبنى، في الخطاب الأدبي، من خلال التوظيف المجازي للغة. ومن استعارات ابن الربيب، قوله: (على أنه لو أطلق ما **عقل الإغفال من لسانه،)**؛ حيث يجعل الإغفال وهو شيء معنوي برجل يعقل فرسه ويربطه بعقال (حبل)، فاللسان فرس يربطه الإغفال، وفيها شخصنة للأشياء . ومنها قوله:(وبسط ما **قبض الإهمال من بيانه)**؛ حيث شبه الإهمال برجل يقبض بيان الكاتب ولا يرسله)، وهو بهذا التعبير يربط بين الألفاظ بعلاقات مجازية تزيد من فاعلية الخيال. وهذا هو الدور الذي يضطلع به الأديب والكاتب الذي يوظف اللغة بهذا التوظيف الذي يعطيها طاقة أكبر وحيوية أفضل من التعبير الحقيقي.

موسيقى الرسالة:

للرسالة بنية موسيقية لايمكن أن تخلو منها رسالة مهما كان نوعها أو حجمها تتزين بها ومن أهمها:

أ– التعادل في العبارات: مثل قوله:(كلّ امرئ منهم قائم في ظلّه لا يبرح ، وراتب على كعبه لا يتزحزح ، يخاف إن صنّف ، وإن يعنّف، وإن ألّف أن يخالف، ولا يؤالف)؛ حيث جاءت العبارة على نحو متعادل الأجزاء:

---

[1] – ابن بسان الشنتريني: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تح إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1997، ج1، ص 133 .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كلّ امرئ منهم (**قائم في ظلّه لا يبرح**) = (**وراتب على كعبه لا يتزحزح**)؛ فقد بنيت على قاعدة موحدة، هي: (مبتدأ+ جار ومجرور+ حرف نفي+ فعل مضارع)، دون أن نغفل حرف الحاء في أواخر الأفعال: (يبرح = يتزحزح)، وما يؤديه من تراكم صوتي واضح في التأثير في المتلقي.

وقوله:(يخاف إن صنّف ، وإن يعنّف، وإن ألّف أن يخالف، ولا يؤالف)؛ إذ بنيت وفقا للقاعدة النحوية الآتية: (إن+ فعل مضارع)، حيث جاء الفعل منتهيا بصوت الفاء :(صنّف ، يعنّف، ألّف، يخالف، يؤالف).

ومثلها العبارة:(لم يتعب أحد منهم نفسا في جمع فضائل أهل بلده ، ولم يستعمل خاطره في مفاخر ملوكه)؛ إذ تشكلت على النحو الآتي: لم+الفعل+الفاعل+ حرف الجر...)، وهذا التوازي (التعادل) في بناء العبارات يمنحها جرسا موسيقيا داخليا يعتمد على تكرار الصيغة النحوية مع اتفاق في الدلالة أو النسق التعبيري . وبهذا النسق العبيري الفني يشكل ابن الربيب التاهرتي كل العبارات، ويطبعها بطابع النثر الفني المغربي، ذي الوشائج اللغوية المشرقية، والأندلسية؛ فرسالة ابن الربيب التاهرتي تنقل لنا واقعا فيه دلالات واضحة على أن الأدب الجزائري كان على اتصال وثيق بالآداب الأخرى. كما تدل على أن الأدب الجزائري قد واكب الحضارة والثقافة السائدة في تلك الفترة من حكم الدولة الصنهاجية.

خاتمة

في ختام البحث، يمكن ذكر بعض النتائج التي توصلت إليها في بعض النقاط، كما يلي:

– اسهام الحواضر الجزائرية القديمة في الحركة الثقافية والأدبية في شتى مجالاتها، حيث كانت حاضرة "تاهرت" مركزا من مراكز الإشعاع الثقافي، في عهد الدولة الصنهاجية. وهذا يدل على تشجيع الدولة للحركة الأدبية، بالاهتمام بالأدباء والشعراء.

ولقد امتاز شعر المدح عند الشاعر ابن الربيب التاهرتي بمواكبته للأحداث التارخية والسياسية التي شهدتها الجزائر (المغرب الأوسط) في زمن الدولة الصنهاجية. وكانت للبيئة المغربية بصماتها في شعر ابن الربيب.

– ابن الربيب التاهرتي علما من أعلام الثقافة العربية في الأدب شعرا ونثرا، إلى جانب علمه بالقضاء وعلو كعبه عند السلطان الصنهاجي. وكان ذا ثقافة موسوعية عززت من شخصيته العلمية والفكرية والاجتماعية في عصر لا مجال فيه إلا لأهل العلم.

– يشكل شعر ابن الربيب مرحلة متقدمة من النضج الفني؛ إذ تمكن من مخاطبة أصحاب البلاط، وأن يمدح كبراء القوم .

– تمكن ابن الربيب التاهرتي من نظم الشعر على جميع الأوزان والبحور المناسبة للأغراض الشعرية؛ حيث نظم على بحر الطويل، وبحر الكامل، وبحر البسيط.

– توظيف الشاعر ابن الربيب التاهرتي للمحسنات البديعية وأهمها الجناس أو المجانسة كما يسميه ابن رشيق القيرواني، وهي من أهم مقومات الموسيقى الداخلية في الشعر.

– ازدهر فن الرسائل في الدولة الصنهاجية، واصطباغها بصبغة الأسلوب المشرقي في النثر، الذي يقترب من أسلوب الجاحظ في إحكام الصياغة، وهو يدل على التواصل الثقافي واللغوي بين المغرب الأوسط (الجزائر)، والمشرق.وهذا يوحي بمدى عناية ابن الربيب بأسلوب رسالته، وبمستواها الفني، وهو ما يعطينا لمحة عن طبيعة النثر الفني في حاضرة من أهم الحواضر الجزائرية القديمة.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

– الرسالة الإخوانية هي نسبة إلى الإخوان وهي تلك المكاتبة الدائرة بين الأصدقاء ، هي فعل تواصلي مع الأخر وتعبير ثقافي عن شخصية الكاتب، وهي وسيلة اتصال طبيعية بين بلد المغرب وبلد الأندلس .

– استطاع ابن الربيب أن يجعل رسالته متراوحة في أسلوبها بين الأسلوب المرسل وبخاصة في مقدمتها، وبين الأسلوب المنمق بالزخارف اللفظية من سجع وتوازن مما أعطى الموسيقى الداخلية تأثيرا فنيا في المتلقي، فجاءت العبارات متناسقة ذات إيقاع نحوي وصوتي منسجم. وقد كانت الصور البيانية من أهم العناصر التشكيل اللغوي والفني؛ فكانت الاستعارة والكناية من وسائل ابن الربيب للتعبير عن المعاني وتصويرها ونقلها في ثوب مجازي تقترب فيه الحقيقة من المجاز . وهي من أهم المؤشرات التي تدل على تمكن الشاعر من فنون البلاغة .

6. قائمة المراجع:

1. ابن بسان الشنتريني: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تح إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1997، ج1.
2. ابن رشيق القيرواني: أنموذج الزمان في شعراء القيروان، تح محمد العروسي المطاوي وبشير البكوش، الدار التونسية للنشر، تونس،1986 .
3. ابن رشيق القيرواني: أنموذج الزمان في شعراء القيروان، تح محمد العروسي المطاوي وبشير البكوش، الدار التونسية للنشر، تونس،1986.
4. ابن منظور جمال الدين بن محمد بن جلال الدين الخزرجي: نثار الأزهار في الليل والنهار،ط1، مطبعة الجوائب، قسنطينة، 1298هـ.
5. آمنة منصور: المناظرة في الأندلس الأشكال والمضامين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،1971.
6. جلال الدين السيوطي: بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة،تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، مطبعة عيسى البابي الحلبي،القاهرة، مصر،1964، ج1.
7. جمال الدين بن يوسف القفطي: إنباه الرواة على أنباه النحاة، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، دار الفكر العربي القاهرة، مصر،1986.
8. سامية مصطفى مسعد: العلاقات بين المغرب والأندلس في عصر الخلافة الأموية، ط1، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، الإسكندرية، مصر، 2000.
9. شهاب الدين العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تح كامل سلمان الجبوري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1971، ج16
10. شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي،عصر الدول والإمارات، ط1، دار المعارف، القاهرة مصر، 1995.
11. صلاح الدين الصفدي: الوافي بالوفيات، تح أحمد الأناؤوط وآخرون، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان،2000، ج12.
12. عبد العزيز نبوي: محاضرات في الشعر المغربي القديم، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983.
13. عثمان الكعاك: بلاغة العرب في الجزائر، نشر مكتبة العرب بتونس، 1344هـ.
14. مبارك الميلي: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، تقديم وتصحيح محمد الميلي، المؤسسة الوطنية للكتاب، (د، ت)، (د، ط)، الجزائر ص 65.
15. محمد الطمار: تاريخ الأدب الجزائري، ط1، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،2010.
16. محمد بن الحسن بن محمد بن علي بن حمدون: التذكرة الحمدونية،تحقيق: إحسان عباس – بكر عباس،ط1، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1996، ج4 .
17. المقدسي: أحسن التقاسيم، ط3، مكتبة مدبولي القاهرة، مصر.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com